

مدونات نقد النقد:

عرف النقد الجزائري العديد من التغيرات نظرا للتأثيرات المباشرة وغير المباشرة للاتجاهات النقدية الغربية التي مكنت الدارسين، والنقاد الجزائريين من الاطلاع على أصول مبادئ التحليل النقدي بأسسه المنهجية، وجعلته يعتمد في مقارنته للنصوص الأدبية على أدوات وإجراءات منهجية لها خصوصيتها ومرجعياتها، ما أدى إلى ظهور العديد من الدراسات النقدية على تشعبها، وتنوع منطلقاتها.

على الرغم من تباين رأي المختصين حول مدى مساهمة النقد في الجزائر لتسارع النتاج الأدبي، وتشكيك البعض في درجة مواكبته لواقع ما استجد. ومن ثم، التساؤل عن فعاليته في صيرورة الحقل المعرفي، كان الإجماع منصبا حول ضرورة التوقف عند ما تم إنجازه نقديا، ومعاينة الحصيلة التي أوجدتها الظروف، والتحويلات التي مرت بها البلاد، ومراجعة الخطابات الموظفة، وتحديد الأطر الفكرية التي تبناها النقاد الجزائريون، وإبراز المسائل الإشكالية التي ناقشتها مدوناتهم.

تجلت بدايات نقد النقد في الجزائر في تجارب نقادنا الأوائل في شكل عفوي بالنظر إلى غياب وعي بجدوى هذا الخطاب، وبقيمته المعرفية، لكنه مع ذلك وجد في شكل تعليقات انطباعية أو مراجعة لبعض الأقوال النقدية في الصحف والمجلات؛ ما يعني أنه كان مرافقا - باحتشام - للإبداع والنقد. وإذ نلمس في بعض أعمال محمد مصاييف اشتغالا على المدونات النقدية رغم غياب الأطر المنهجية لممارسة نقد النقد وكذا عدم اكتمال رؤيتها عنده، حال دراسته: "جماعة الديوان في النقد"، وهو ما يؤكد عليه محمد ساري في قوله: "لا نكاد نلاحظ وجود شخصية الناقد وآرائه إنه يكتفي بالتحليل والشرح المفصل مستعينا بالشواهد النقدية والشعرية لكل من العقاد والمازني وشكري دون أن يدلي برأيه موافقا أو معارضا". كما أشار مصاييف في كتابه: "النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي" إلى دور الصحافة في ترسيخ العمل النقدي في الأقطار المغاربية والتي تقوم حسب "على

المفاهيم النقدية القديمة، ويرتبط روحا وعملا بالاتجاه التقليدي الذي ظهر في المشرق العربي مع ظهور النهضة الحديثة(...) فالنقد بالمفهوم المتداول اليوم كان منعما أو على الأقل نادرا". فضلا عن تقسيم المراحل التي مر بها النقد في المغرب العربي إلى ثلاث اتجاهات، هي: الاتجاه التقليدي، التأثري والواقعي، مستعرضا مجموعة من المفاهيم كالاتزام ومخضعا العديد من القضايا النقدية للنقاش، والتحليل؛ كاللغة والذوق.

يتضح عمل مصايف في تتبع المدونات النقدية، ومعالجة الآراء التي عرضها عبد الله الركيبي في مقدمة المجموعة القصصية "بحيرة الزيتون" لابي العيد دودو، حيث اعتبر مصايف أن الركيبي كان أول من "أرخ لظهور الاتجاه الواقعي في الأدب الجزائري باندلاع الثورة الجزائرية"، والتي يرى ساري أنها لا تعدو كونها آراء تحمل سمة مدرسية في أغلبها، خالية من العمق والتخصيص. فضلا عن بعض المقالات التي نشرها مصايف، وجمع بعضها منها في كتابه: "دراسات في النقد والأدب". وليس مستغربا أن لا ينال نقد النقد حيزا مهما في كتابة نقادنا الأوائل؛ ذلك أن النقد كان في بداياته، وهو مرجعيته الأولى، والخطاب الذي يتأسس عليه. ومن ثم، فمنطقي أن لا يحظى نقد النقد بنصيب أوفر من حظ النقد في تلك الحقبة من الزمن.

غير أن في اشتغال محمد ساري على منجزات محمد مصايف بعض من الملامح التي تشي بتكون فهم أكثر وعيا عن عمل ناقد النقد في شقه النقدي التاريخي، حين تتبع المسار التاريخي الذي مر به منجز مصايف النقدي في مجال القصة؛ "لاستنباط عناصر التطور التي طرأت على المنهج والرؤية، إيمانا بأن الكاتب يتعلم دوما ويعمق ثقافته ويحسن منهجية باستمرار"، فضلا عن رصد الآراء الفكرية والنقدية واستقصاء المرجعيات الفلسفية والأدبية "لاستخراجها وتصنيفها وتوضيح رؤيته مثلما عبر عنها بطريقة واضحة أو مضمرة"، دون أن تغيب بعض الإشارات التنبؤية مبرزة بعض ما جانب فيه مصايف معايير المنهج النقدي الذي صرح بتبنيه.

ولعل أهم بحث نقدي برز فيه عمل ناقد النقد، هو ما قدمه يوسف وغليسي في دراسته "النقد الجزائري من اللانسونية إلى الألسنية"، واستعانته هو الآخر بخطاب التأريخ، إذ يحدد بداية النقد المنهجي في الجزائر بفترة الستينيات ويجعل كتاب أبو القاسم سعد الله "محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث" الانطلاقة الأولى للخطاب النقدي الجزائري. وتضم الدراسة مجمل المناهج، وتطبيقاتها في النقد الجزائري، والتي قسمها إلى مرحلتين رئيسيتين؛ المرحلة السياقية، وتشمل النقد التاريخي، الاجتماعي الانطباعي، النفساني، المقارن والتكاملي، أما المرحلة النصانية، فتجمع النقد الألسني(البنوية، السيميائية، الأسلوبية، التفكيكية)، وكذا النقد الموضوعاتي والإحصائي.

لم يستخدم وغليسي مصطلح نقد النقد، إلا أنه أدرج عمله تحت مسمى أخر هو "القراءة اللاحقة" التي لاحظ غيابها عند الدارسين، "وما وجد منها إنما كان لا يتجاوز طقوس القراءة الأكاديمية النمطية التجميعية الجامدة". ومن بين المآخذ التي رصدها حول تطبيق المنهج؛ ما لاحظته من تداخل للمتن الشعري في عمل صالح خرفي، وكذا التعامل الأركيولوجي الذي وظف به المنهج التاريخي، والذي لا يعدو فيه التعامل مع النص الأدبي، على أساس أنه "نسخة مخطوطة بحاجة إلى تحقيق"، فضلا عن التطبيق الباهت للنقد الاجتماعي عند متبني هذا المنهج. كما كان للمصطلح النقدي نصيب من حديث وغليسي الذي أشار إلى تغيبه في الدراسات النقدية الجزائرية.

يصرح عمرو عيلان في مقدمة دراسته "النقد الجديد والنص الروائي العربي" بصفة مباشرة إلى انضواء عمله تحت خطاب نقد النقد من أجل غاية جوهرية وهي رصد جملة "المرجعيات الفلسفية، الجمالية، اللغوية، النفسية والسوسولوجية للمتن النقدي المدروس"، والبحث في المداخل التي التقى فيها الدرسان النقيديان العربي والفرنسي الجديد في مجال نقد الرواية. اعتمادا على ما جاء به محمد الدغمومي في دراسته "نقد النقد وتنظير النقد الأدبي المعاصر" الذي قسم فيه نقد

النقد إلى أربعة خطابات، هي: التعليم التأريخ، التحقيق، التنظير. ويشير عيلان إلى أن دراسته استفادت من خطابين هما: التحقيق والتأريخ، إذ يهدف خطاب التحقيق إلى "فهم مغاير للفهم السابق للنصوص النقدية فهو يقوم على التساؤل لإعطاء صورة ورؤية مغايرة للرؤية الأولى، وآلياته لا تخرج عن تسمية خطاب القراءة". وبالتالي يسعى هذا الخطاب من خلال قواعد محددة إلى تمحيص ما قدم من إنجازات نقدية ويقف عند ما شابهها من فجوات تدفع الباحث إلى أن يطرح أسئلة معرفية حول طبيعة النصوص النقدية، وأما خطاب التأريخ، فيتضمن مجموعة من الخطابات التي تتعامل مع النقد، بغية تنظيمه وفق ترتيب زمني معين، يجعل المادة النقدية مرتبطة بالأحداث السياسية والاجتماعية. وعليه، يسعى خطاب التأريخ إلى احتواء النقد الأدبي في علاقته بشروط تكوينه.

لقد تبلور خطاب نقد النقد الروائي في الممارسة العربية حسب عيلان في صيغتين؛ الأولى منهما، تعنى بتقديم قراءات نقدية تخص التعريف بالمنهج كدراسات حميد لحمداني، أما الصيغة الثانية، فتدرس "الآثار النقدية التي تناولت نصوصاً روائية، وفي هذا الاتجاه نجد دراسة نقد النقد قام بها محمد سويرتي (النقد البنيوي والنص الروائي)"، وتشترك الصيغتان في محاولة البحث عن حقيقة العلاقة التي تجمع النقادين العربي والغربي، والكشف عن أسس التفاعل بينهما، والتأصيل لمسار تطورهما.